

حيرة واضطراب رب ان النفس لترضى بان تذوق الموت مائة ألف مرة
ولا تذوق حرقة فرقتك مرة واحدة رب ان مصائب الدهر وجميع الامراض
القتالة لو اجتمعت على لا احتملتها غير متوجع من وقعها ولا تكن لا طاقة لى
على احتمال بمدك عنى رب لو احتجبت عنا برهة اقبلت أرضنا وغاضت
أنهارنا فاذا يكون حالنا لو دام هذا الاحتجاب لولاه لما احترقت نار الجحيم
واشد لهيبها رب ان فى تجليك حياتنا وكمال سعدنا ونعيمنا وفى احتجابك
عذابنا وجحيمنا)

الفصل الخامس

﴿ القضاء والقدر ﴾

متشابهات القرآن ومذهب الناسخ والمنسوخ — الاختيار والقضاء
والقدر فى القرآن والحديث — مذهب (توماس)
ومذهب (مولينا) — الجبرية والقدرية

يثبت الناس كل مبحث بالقرآن اذ من السهل جداً ان يجد فيه
الباحثون سنداً لدعاويهم المتناقضة والقرآن فى هذا لا يختلف عن غيره من
الكتب المقدسة التى تستوقف المطالع بظواهر متشابهاتها والقرآن على
مذهب اهل السنة قديم مرقوم من الازل فى اللوح المحفوظ ونزل به الملك
جبريل (عليه السلام) فى الليلة الثامنة والعشرين من شهر رمضان وهى ليلة

القدر من السماء السابعة الى السماء الرابعة

ثم نزل على النبي في الارض مفرقا في مدى الثلاثة وعشرين سنة وهي مدة الرسالة ونرى انه لا يجب الاخذ بهذه الرواية الا في أمر واحد هو ان الست آلاف آية التي يتألف القرآن منها نزلت تباعا بعضها اثر بعض على غير تساوي العدد كل مرة وفي ظروف مختلفة عن بعضها كثيرا بحيث تلزم معرفتها حتى يتمكن الباحث من النظر في التشابهات منها وبينما الانجيل يقص على الناس جميع أدوار حياة رسوله وتعاليمه بعبارة وافية سهلت على المسيحيين من مبداء أمرهم ان يتناقضوها خلفا عن سلف ترى القرآن لا يأتي على شيء من ذلك غير انه كلام الله لنبيه وان سورة كذا مكية وسورة كذا مدنية وهو تقسيم اختياري ادخل عند جمع الكتاب وليس فيه شرح او حديث يساعد على معرفة الوقائع والظروف التي استنزلت سورة وآياته وهذا هو أحد الاسباب التي تحمل على القول بان في القرآن اختلاف وهناك سبب آخر مقبول ذلك ان الوحي كان ينزل على النبي بحسب حالة الافكار وتحولها الديني بسبب رسالته فكانت الابات تنزل كما تقتضيه تلك الحال وكان من اللازم طبعا حصول التعديل في اللاحق منها حتى يلائم المقام فالحكم الذي يوحى به لرد شبهة ظهرت تخالف ذلك الدين الجديد لا يمكن ان يبقى كما نزل بعد تبدل الأحوال وزوال السبب من الافكار وليس من ينكر على الطبيب تنويع الادواء بحسب أدوار المرض وتقلباته وعلماء الاسلام يردون طعن المندسين في هذا الموضوع بمذهب الناسخ والمنسوخ فيقولون ان الله انزل أحكاما في القرآن ثم نسخها بغيرها لاسباب

حكمة عالية

وتنقسم تشابهات القرآن الى قسمين فمنها ما هو ظاهري فقط يسهل التوفيق بين قضاياه ومنها ما خفي سببه أو تعمس فيه خصوصاً فيما يتعلق بالقدر المحتوم ولذلك تشجذت افهام العلماء في الكلام عليه وما جاء في القرآن متعلقاً بهذا الموضوع قليل في جانب ما ورد في الاحاديث الشريفة وهي مجلدات كبيرة جاءت بجانب القرآن كالقوانين الكنائسية وحكمها يكاد ان يكون كحكم تلك القوانين ولكنها ليست عند المسلمين في درجة القرآن اعتباراً وقد اعتنى الجامعون كثيراً في جمعها ولكنه حصل بعد النبي بمائتي سنة تقريباً ولذلك لا يمكن للباحث ان يثق بصحتها وثوقه بصحة القرآن نفسه فلا يبعد ان بعض المتكلمين اضافوا رأيهم الى النبي وان كثيراً من الاحاديث المنسوبة اليه موضوعة لم تصدر عنه

ومن ذلك سهل على بعضهم ان يستنتج من بعض آيات القرآن ومن كثير من الاحاديث على الخصوص بان الاستسلام للقضاء والقدر اس من اساسات الدين الاسلامي وركن من اركان الاعتقاد بانه لا اختيار للمرء في افعاله ولكن ارى من السهل أيضاً ان يجد الباحث في القرآن والحديث سنداً في القول بان الدين المحمدي لا ينافي الاختيار في الانسان على انه من المسائل التي جاءت في الكتب المقدسة مالا تزال تحت نظر المتكلمين وهم الى اليوم لم يهتدوا الى حلها ومسألة التوفيق بين قدرة الخالق وارادته في كل شيء وبين الاختيار في الانسان مسألة يشترك فيها المسلمون والنصارى والخلاف فيها عند كل فريق لا يزال قائماً حتى الآن

وصف النبي ربه بأنه العالم بكل شئ، ثم وصفه بأنه علام الغيوب وهذا الوصف الأخير جزء من الأول وقدرة الذات الالهية واستخلص من ذلك تبعية المخلوق وقال ان الله هو السبب الاعظم الاولى في كل شئ، فارجع اليه جميع اعمالنا لذلك جاء في غير موضع من القرآن (وهو القاهر فوق عباده) عالم الغيب والشهادة (قل كل من عند الله) وكلها حقائق دارت عليها أبحاث المختلفين والتقيض على ما يقولون وهو الاختيار في الانسان مؤيد أيضا في مواضع كثيرة من الكتاب فقد عُد المشتغلون بالتفسير واحداً وخمسين آية كلها في اثبات ذلك الاختيار يضاف اليها ثلاث عشرة آية تختص بمسؤولية الانسان عن فعله وكان من المتمنى ان يأتي النبي بما يوفق بين هذين الأمرين على ان غيره من الكتب المقدسة لم يتعرض لذلك ولم يأت اجتهاد العلماء في التوفيق بين هاتين الحقيقتين بفائدة غير توسيع الخلف او وضع الخلط والتعسف موضع سر لم تصل اليه الافهام وقد اترف بذلك (بوسويه) في كتابة (الاختيار) حيث يقول ان الحق لا يهدم الحق وتمذر جمعهما على الافهام لا يستلزم عدم الاعتقاد بصحة كل واحد منهما فمن المستحيل نفي الاختيار لاثبات القدرة الالهية ولا نفي القدرة الالهية لوجود الاختيار في الانسان لانهما حقيقتان لا شك فيهما وكان يرى ان هذه المسئلة مما لا تطيقه افهام النوع البشرى وكان يوصى من يقترب منها (بان يتمسك بطرفي السلسلة جهده وان لم يقف على وسطها حيث يرى كيفية الاتصال بينهما) وهذان الطرفان اللذان لا ينبغي افلات احدهما القدرة الربانية والحرية الانسانية أى الاختيار والوسط

الخلق علينا هو التوفيق بينهما فلسنا نعرف صنع الله الذي به يحفظ على المرء اختياره ولا كيف ان السبب الكلي القديم لا يعدم السبب الثانوي الحديث قال (بوسويه) (ذلك امر يعلمه الله فلا شأن لنا فيه ولا يضرنا بقاء السر مكتوماً لديه (سبحانه وتعالى) وهذا هو مذهب المسلمين الحقيقي في الموضوع فان سألهم كيف يجمعون بين قدرة الله والاختيار اجابوك من فورهم ذلك علمه عند الله كما قال (بوسويه) او قالوا ليس لاحد ان يبحث فيما يريد الله والله ان يسأل عبيده عما يريد كما قال شيخهم البركاوي وجاء في القرآن (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)

ومن هنا يتبين لك مقدار اعتقاد المسلمين في القضاء والقدر وانما ترجع التبعة في مذهب الاستسلام لبعض المتكلمين من علماء الاسلام دون البقية وهم الذين نفوا الاختيار حتى لا يعارضوا به قدرة الله وتفرده في الوجود ومنهم من رأى حل الاشكال في عكس ذلك وهم احزاب الاختيار فينما الجبرية يقولون ان كل عمل للانسان صادر عن الله يقول القدريه ان المرء يخلق اعماله بنفسه ولا شك ان مارواه (بالجراف) اثناء طمعه على مذهب القضاء والقدر عن النبي حديث لاحد الجبرية مذموب للرسول ولم يكن من كلام النبي وهو (لما اراد الله ان يخلق الانسان تناول بيده الطينة التي تكون منها وقسمها الى قسمين متساويين وقال هذا للجنة ولا أبالي وهذا للنار ولا أبالي ولذلك اشتد (بالجراف) على الاسلام كغيره من مستشرقى الانكليز ورماء بانه دين عباد القوة حيث ان الهمم اله بيده جميع الاعمال اختصاصاً واستثنائاً)

ونحن نسلم انه قد يتأتى ان عالما من علماء التوحيد المسلمين يحكم بان
 النعيم أو الجحيم مقدران أزلا بناء على رواية سندها غير مجمع على صحته
 ولكننا لانسلم مطلقاً ان ينحو هذا النحو علماء البحث في حقائق الامور
 والتنقيب في اصولها ولذلك يسأل علينا ان نقبل من (بالجراف) قوله بان
 دين الاسلام يرجع كل شيء الى قدرة الخالق ولا تقبل مذهب الجبرية
 على ان محمداً (صلى الله عليه وسلم) لم يكن من عباد القوة لكونه رأى في
 الله السبب الاولى في كل شيء وسنبين ان مذهبه مقول به من فريق رفيع
 الكلمة بين علماء الكلام المسيحيين الذين لم يطعن على رأيهم ولم يتعرض
 أحد من الباحثين للقدح في مذهبهم وليس الاسلام من الديانات التي
 ترجع كل شيء الى القوة بل هو أول دين ميز بين الخلق والخالق على نحو
 واضح بقول صريح فما أبعد الاعتقاد بالوهية الطبيعية عن شرع محمد عليه
 السلام فهو الذي اخرج عن الالوهية ما ليس منها وبعيد عليه بعد ذلك ان
 يقول بان الله انما هو كل شيء ومن جهة ثانية لو رجعنا الى طبيعة افكار
 الشرفيين لرأيناها لا تلائم مذهب الطبيعيين وانما دب فيهم هذا الفكر
 من الاعجاب الذين اكثروا من السفسطة في الاسلام حتى مالوا به
 الى الطبيعة

ونقل (سالس) عن البخارى حديثاً يؤخذ منه ما يدل على تقرير
 مذهب النعيم ازلا عند المسلمين ولا يخفى ان البخارى كان من الجبرية
 القائلين بان الله يخلق في المرء أعماله كلها فالانسان غير مختار وهذا ما نقله
 (سالس) (تقابل موسى مع آدم أمام العرش فقال موسى أنت آدم الذي

خلقتك الله وبمك فيك الروح وأمر الملائكة أن يعبدوك واسكنك الجنة
ثم حرّمها على الناس بخطيئتك فقال آدم وأنت موسى الذي اختاره الله رسوله
وانتمنك على أوامره فانزل عليك الألواح بشرعه ووهبك مناجاته أعلم
كم من الأعوام كتبت الشريعة قبل أن أخلق في الوجود فقال موسى
اربعمين فقال آدم أو ما قرأت فيها (فمضى آدم ربه وغوى) فاجابه موسى
نعم فقال له آدم اتقدم على ملامتي لأنني فعلت ما كتب الله اني فاعله قبل
ان يخلقني باربعين سنة بل قبل ان يخلق الله السموات والارض بخمسين
الف عام)

ولو اننا علمنا لمن النصر منهما أمام العرش لحكمنا بوجود الاختيار
في الانسان من عدمه قال البخاري وقد سأل الناس النبي كثيراً عن المنتصر
منهما فاتته بان قال انه كان لآدم عليه السلام وهو حكم بتأييد قول بلا
توضيح تراه موضوعاً اخترعه أحد الجبرية تأييداً لمذهبه ولذلك ذهب أحد
أحزاب الاختيار الى ان الحق كان بيد موسى وقال ان النبي اجاب بان النصر
كان لموسى ولا يؤخذ من هذين الحديثين سوى ان المسئلة كانت موضوع
نظر الطرفين بين الانصار انفسهم وهو الواقع لأن لدينا من الوقائع
والاحوال ما يدلنا على انه صلى الله عليه وسلم ما كان يجب الخوض فيها فكان
يشتم من سؤاله عن ذلك ويميل في محادثاته الخصوصية عن تفسير ما انهم
مما نزل به الوحي عليه (اذا جاء ذكر القدر فامسكوا)

ومما تقدم يتبين انه يجب الافلاع عن اتهام ابي الاسلام بمذهب
الجبرية وان من التطرف القاء هذا الجرم على عاتق المتكلمين من المسلمين

لما قد بيناه من أن نصفهم على خلاف هذا المذهب وقد قال (رولان) أن الفريقين لم يوضحا رأيهما تماماً ولذلك تناقضت أقوالهما كما تناقضت أقوال غيرهم وفي الواقع نرى هذا التناقض بعينه عند المتكلمين من المسيحيين ومن تمام الفائدة أن نأتى هنا بالإيجاز على ما قاله المسيحيون في أعمال المرء وتأثير الإرادة الإلهية فيها فهم منقسمون منذ قرون عديدة الى فريقين عظيمين لكل منهما شيعة ذات شأن خطير وهما فريق (لوابولا) وفريق (دومينيك) ولا يزال الخصام محتدماً بين الطائفتين وكل يزيد في الخلف بما أودع فيه من حب التمسب لشيعته فهو لا يذهبون الى ما يقرب من مذهب الجبرية وأولئك يقولون بالاختيار في الانسان وكل متمسك برأى قومه تمسكاً ما عليه من مزيد والفريقان يملآن على تمجيد الخالق جل شأنه مع المحافظة على مذهب شيعته وعدم الخروج عن طغمته

فاما اصحاب (دومينيك) فقد اتسبوا الى (توماس) فليل لهم توميون وهو عنوان له وقع في النفوس ومنزلة في الافكار وساطة في المناشآت اذ يتردد الناس كثيراً في مارضة رأى سدد ملة المذهب (هو القديس توماس المذكور سعى بذلك لبعصيته وعلو كلمته بينهم) ومع كونه عنواناً رفيع الشأن فان من اتحلوه عادة ليسوا على استحقاق به قاعى احزاب (جامنسانوس) الهولندى صاحب مذهب القضاء والفسد الذى حرمة البابا (ليون) العاشر انهم من اتباع القديس توماس المذكور ولا يعترف اليسوعيين لفريق (دومينيك) بالتبعية اليه لان مذهبهم يميل الى القضاء والقدر ولم يكن توماس من هذا الرأى في اعتقادهم بل أصل المذهب رجل

اندلسى يقال له (بانيس) كان يدرس علم الكلام فى -- لمنك فى أواخر القرن السادس عشر ولذلك ينسب اليسوعيون مذهب دومينيك الى هذا الرجل ولكننا سنبقى للمذهب اسم توما لا ادعاء انه الحق وان لنا من الدرجة ما يخلو لنا ان نأتى بفصل الخطاب فى مثل هذا الجدل ولكن لانه أسم قرره التاريخ فصار معروفا حتى ان المتكلمين من الوعاظ يؤيدون نسبتهم اليه بتعاليمهم فى الاعجاب به وتمصبهم لذلك الرئيس الذى كان به مجد عشرته ولقد ذهب بهم التعصب حتى ادخلوا فى تعاليمهم ان ما نقل عنه انما هو أمر مة - دس وحرموا على الخلف الخروج عنه وجعلوه صادرا عن معصوم لا يخطأ وفرضوا على المريدين فى مذهبهم يميناً ان يقبلوا كل ما جاء عنه قضية مسلمة بغير جدال ولا مناقشة وما شبه هذا التحريم بما جاء فى القوانين الاساسية الفرنسوية حيث نصت (لا يجوز لاحد ان يطلب من الشورى المناقشة فى شكل الحكومة الجمهورية) بمعنى ان كون الحكومة جمهورية أمر يجب الاذعان اليه مطلقاً ولو طلب من الكنيسة ان تفسر ما تناقض من مذهب هذا الرئيس خيف على الشيعة ان تنحل روابطها ولذلك نراهم يهربون من التفسير بما منعوا من نظر المجتهدين فقد كان احزاب (دومينيك) ومعهم قديسهم توماس قبل تقرير مذهبهم يقولون بان العذراء لم تكن معصومة فلما تقرر مذهبهم قالوا معه انها من المعصومات وهو تناقض يحرم النظر فيه كما قرروا اما شيعة اليسوعيين فغير مرتبطة فى تعاليم القديس توماس بهذا اليمين ولا كنهم لا يريدون الجهر بمخالفته فى دفاعهم عن الاختيار بل يطعنون على (ابانس) ويحاجون مذهبهم بمذهب مولينا وهو

يسوعى من البرتغال ولذلك اطلق عليهم عنوان (مولينين)
وكان الجدل عنيفاً بين الطائفتين فبدأ نحو السنة التسعين بعد
الاربعمائة والف من الميلاد ودام حتى نهاية القرن السابع عشر ولم تؤثر في
الحزبين أو امر الباباوات المتكررة بمنعهما عن المطاردة وها قد عاد الجدل فظهر
في هذه الايام وكان كل فريق يرى خصمه في مبدأ النزاع بالبدع والمروق
فقام بانس امام الهيكل وحرم كتاب مولينا مدعياً أنه احتوى على مسائل
كلها بدع ترجع الى مذهب (بيلاج) وهو قس ظهر في القرن الخامس
انكر سبق القضاء بالجريمة التي ارتكبها آدم في الجنة وان كل خطيئة من
بعده نخطيئته السبب فيها ورد عليه مولينا فرماه بانه من شيعة (كلفان)
وهو العالم الشهير في القرن السادس عشر مؤسس مذهب البروتستانت
في الدين المسيحي فلما رفع الخلاف الى البابا تحير في أمره ولم يدر بماذا يحكم
بين المتخاصمين وكانت قضية تشوق الافكار لمعرفتها ويحب كل باحث
في علم الكلام الوقوف على مفصلاتها وقد دامت مطروحة امام البابا
(كليمان) الثامن الى بولس الخامس وتداخل سفير اسبانيا معيناً لشيعة
توماس فلم يفلح بل قوى الخصام وعمد البابا بولس الخامس الى نصح
الفريقين باستعمال ما امر به الانجيل من المحاسنة ولين المعاملة فكان يقول
(مما لا ينبغي أبداً ان يتخاصم أولئك القسس خصام التحافد والاستقتال
كالمتوحشين) وانتهى قاضى رومافلم يقرر بان الخطاء أصله خطيئة آدم ولكنه
لم يقض على أحد الفريقين بل اباح لكل نشر مذهبه وقال ان النزاع في
الدين غير معيب فان الله مع كل متدين والمذاهب تستنير ببعضها كما يحلي

الماس بالماس

وسار اشباع توماس في مذهبهم شوطاً بعيداً حتى فاقوا مذهب الجبرية في الاسلام وكان (بانس) يقول (أن الله هو السبب في جميع الموجودات فليس من سبب سواه فكل مسبب هو سببه وهو المسيطر على كل شيء وليس لغيره سلطان عليه) وكان خلفاءه يجتهدون من بعده في التوفيق بين رأيه وبين الاختيار في الانسان فأضطربت افواههم واعجمت عباراتهم وقالوا ان كل عمل واجب وجائز معاً ثم فسروا بان الله هو الذي يبعث الارادة في الانسان ومعلوم ان الارادة مختارة فهي مسيرة حسب طبيعتها اعني حرة في عملها وهو غاية في الخلط ونهاية في الانحاض

وانتهى الجدل أخيراً بظهور مذهب جديد يقول بتأثير الله واختيار الانسان معاً وهو المذهب الذي مال اليه (بوسويه) لكونه لم ير أحسن منه في التوفيق بين الامرين ومبناه ان الله سبب اولى والانسان سبب ثانوى ولست اريد ان افسر مذهب مولينا غير انى أقول انه أوجد لفظين سهلاً الكلام ان لم يكونا قد سهلا تفاهم هذا المعنى العظيم فكان العلماء قبله يصفون الفعل بكونه واجباً أى لا بد من وقوعه وجائزاً أى يحتمل الوقوع وعدمه مع اهمال المستحيل فاضاف هو لفظاً ثالثاً جعل معناه وسطاً بين الحالتين وقال منتظر^(١) وهو عنده الواجب المقيد بشرط اذا تم وقوعه والا فلا وكان يسمى العلم بالمنتظر علماً وسطاً وبهذا يقدر تأثير القدرة الالهية في الافعال وخلاصة هذا المذهب تغليب الاختيار على القضاء والقدر رد المذهب توماس

(١) هو في علم التوحيد الممكن المشروط

وهو تغليب الثاني على الاول

هذا واذا رجعنا الى الاسلام وجدنا شبهة كبرى بين القدرية والموليين وبين الجبرية والتوماسيين وهؤلاء وهؤلاء عور كما قال عبد الرزاق قاما القدرية وهم احزاب الاختيار فانهم فاقدوا العين اليمنى وهى الاقوى التى بها يبصر السبب الاولى واما الجبرية وهم القائلون بالقضاء والقدر فقط فانهم فاقدوا العين اليسرى وهى اقل ابصاراً لكنها تبصر السبب الخارجى او الثانوى وعنده (ان الذى يرى الصواب هو الذى يستعمل الباصرتين من قلبه فيرى باليمنى مصادر العمل الاولى ويرجع الى الله جميع الافعال خيراً وشرها ثم يرى الناس باليسرى ويبصر تأثيرهم فى تلك الافعال بذاتها) وكان هذا الخلاف العظيم سبباً فى إيجاد الفاظ مخصوصة استعمالها المتناظرون الا انها لا تخلو من السفسطة فقالوا ان لكل عمل قضاء ولكل عمل قدراً بالقضاء يقرر الله كل شئ يكون والقدر هو تنفيذ الشئ المخصوص على النحو الذى تقرر بالقضاء، وبياناً لذلك جاء عبد الرزاق بالقصة الآتية (بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم سائراً فى الطريق يوماً اذ رأى جداراً يريد ان ينقض فقال عنه فقال له احدهم اتريد ان تهرب من قضاء الله فاجابه انى اهرب من قضائه الى قدره)

وظهر مذهب ثالث اراد التوفيق بين الجبرية والقدرية ومن رأى اصحابه انه ليس من قضاء مطلق ولا من اختيار مطلق بل الحال وسط بينهما والفعل الواحد نتيجة اثرين احدهما الهى والثانى انسانى واشتقوا لهذا المعنى الوسط لفظاً مخصوصاً سموه الكسب الاختيارى وهذا الاشتقاق يعد كثيراً عند

اصحاب الجدل وقالوا ان الافعال تنبعث عن ارادة الله والمرء يكسبها باختياره
ووقفوا بين بعض الاحاديث المتناقضة لا ليضعفوا من مذهب السنين بل
ليبينوا ان القضاء الازلي لا يزال سراً مجهولاً

ولما سئل النبي عن مصير صديقه ابي هريرة اجاب موجزاً (لقد جف
القلم بما قدر له) ومعناه ان مصير كل مخلوق مكتوب من الازل في اللوح
المحفوظ ولن تجد له تبديلاً الا ان قوماً سألوه لم يعمل الناس فاجابهم (اعملوا
فان الله خلق في كل واحد منكم ما يقدر به ان يفعل ما خلق لاجله) وجوابه
هذا قريب من قول (هيرفليت) و (هيجل) من بعده من ان المرء خلق
بين اعمال كانت واعمال تكون

ويقرب مذهب عبد الرزاق كثير آمن مذهب (التوميين في هذه الايام
فالمذهبان يتفقان في ان الاختيار دخلا في كينونة الافعال وعلى ان ما قدر محتم
من جهة وجاز من جهة اخرى وهي نتيجة لا تفهم وهو يقول ان القضاء
يتناول الفعل نفسه وكيف يقع والكيفية هي الاختيار الانساني وجاء
(بوسويه) بعده باجيال عديدة يفسر الموضوع بذاته كما فسرته هو من
قبل فقال يعمل الانسان العمل مختاراً بقضاء الله الذي اراد ان يكون مختاراً
وهو معه في جميع ادوار الفعل حتى يكون وليس هذا كل ما يتشابه فيه
المسيحيون والمسلمون بل الحال واحد في امور كثيرة غير ما تقدم كالعدل
ومسؤولية العبد ومصدر الشر وايهاب السلامة من الله في الآخرة وهكذا
الى هنا امسك القلم عن الخوض في هذا الموضوع ولكن ليسمح لي
القارئ ان اذكر تشبيها لعبد الرزاق المار ذكره تأييداً لحجته فانه اراد ذات

يوم ان يبين لاحد طلابه سبب ان الرجل ذا النفس الدنيئة يفضل الشر على الخير مع علمه بافضلية الثاني على الاول فقال له ان مثله مثل الزنجى الاسود الذى يحب أولاده على قبيح خلقهم ويفضلهم على ولد من أبناء الترك مع علمه بانه فوقهم فى الجمال

ثبت والحالة هذه ان الاستسلام ليس من قواعد الاسلام بل هذا مذهب البعض من علماء المسلمين بدأوا كأمثالهم من المسيحيين بان يقرروا ان السبب الثانوى فى الافعال خاضع لتأثير السبب الاصلى ثم دفعهم حدة الخصام فتغالوا بما شذ عن المعقول وخرج عن الصواب ذلك لان المذاهب من شأنها ان يحتدم الجدل بين احزابها فلا يتمكن الهدوء من ان يسود فى المناظرات ولا يتحكم المعقول وحده فى المناقشات كما قال (رينبون) ثم قام أناس فنشروا تلك الأقوال المتطرفة سواء عند المسلمين او المسيحيين ولكنهم لم يؤثروا تأثيراً كبيراً كذلك يكون الحال فى كل آن ولن نجد لما فطر عليه المرء من الوجدان تبديلاً أما عقله فسيبقى فى البحث عن حل يرضيه لهذه المسئلة الغامضة فاجتماع ارادة الله وارادة المرء فى كينونة كل فعل من الافعال بحث عزيز المنال كما عز على العلماء عند المسيحيين ان يفقهوا معنى الرجل الالهى بشرط ان لا تتغنى احدهما بالآخرى أى الارادتين وهو مذهب غير مرضى عنه عند الموحدين بلا استثناء . قالوا قضاء وحكم ازالى وتأثير وميل واستعداد واجتماع وكلها الفاظ انما تدل على اجهاد الفكر فى استنباط المجهول ومهما اجتهدوا فى بحثهم فان الخطاء لازم لتفسيرهم كيفية تأثير القدرة الالهية فى افعال البشر لان نبراسهم الذى

يهدى بهم بشرى وإن يصح أن يقاس الاله بالإنسان فما شبه عقل المرء على ضعفه في بحثه عن النسبة بين السببين الالهى والبشرى بميزان فاسد أن أخذنا من احدى كفتيه سيراً لنضيفه الى الثانية انخفضت احدى الكفتين على عجل تكاد أن تقلب الثانية وهو دليل على فساد النظر بهذه الكيفية والحاصل أن علم الله وقدرته أن يزل لا يظهر أن لا أفكارنا منافيين للاختيار فينا ونحن نشعر به حقيقة لامندوحة عن التصديق بوجوده وستعاقب الفلاسفة ويقتلون ازماتهم في البحث والتنقيب عن امر لا يحصى عنه وليس من فائدة في حله اذ الحقيقة ومقابلها من المعانى المقبولة عند جميع الناس عالمهم وجاهلهم من دون تعب ولا اشمئزاز فالاختيار في الإنسان مبدأ ادبى يدهى التصديق كما قال (كانط) فهو بعيد عن مناقشات الباحثين ولا تأثير للتنقيب فيه وقد قال (لوتر) أخذاً عن (كلفان) باستعداد الإنسان لاثورات المادية ومع ذلك لا نرى المسيحيين الكاثوليك والبروتستانت يشعرون بأنهم ليسوا احراراً فيما يأتون من الاعمال

هذا واذا بحثنا عن السبب الذى اوجب اتهام المسلمين بالاستسلام لوجدناه ناشئاً من عدم ادراك الناس لحقيقة تلك الفضيلة التى هى من خصائص ذلك الدين ومنها اشتق اسمه (اسلام) وتلك الفضيلة هى الاحتمال فقليل من الديانات يأمر الناس بالرضوخ الى الارادة الالهية على النحو الذى جاء به الاسلام والمسلمون يعملون بتلك الفضيلة فلا يفوقهم فى التمسك بها نساك المسيحيين ومن الخطأ الحكم على المسلمين بذهب الاستسلام لبعض الفاظ يستعملونها كقولهم هذا مكتوب عند ما تصيهم محنة فانما

هم يعلنون بذلك خضوعهم لرب السموات والارض كما يفعل المسيحيون بقولهم (فلتكن هذه ارادتك) كذلك نسبوا الى الاستسلام ثبات قدم المسلمين وعدم جزعهم من الموت واقدامهم بشجاعة تتصل بالتهور في ميادين الحروب مقدمين رؤوسهم الى أسنة الجيوش الاوروباوية في هذه الايام وهو خطأ أيضاً لان تبسم المسلم عند ملاقة الموت واثباته اخطار الحروب انما جاءه من اعتقاده الجازم بنعيم الدار الآخرة ومن شدة ايقانه وايمانه مما يجعل النفس هادئة تلقى الخوف وهي مطمئنة ولا شك في ان الدين الاسلامي بتسهيله على الانسان انتقاله من هذه الدار قد حلّ معضلة من اصعب المشكلات ومن النقص في مثل هذا الدين ان يرمى بانه قتل من شجاعة المسلمين الادبية او أرخى عزائمهم

